

تجليات المقاومة الثقافية والفكرية في الشعر الفلسطيني المعاصر

(شعر سميح القاسم نموذجاً)

جمال طالبي قره قشلاقي*

تاريخ الاستلام 2018/10/30

تاريخ القبول 2019/9/2

ملخص

يستغرق موضوع المقاومة جزءاً مهماً من الشعر العربي الحديث. ويمكن القول إن شعر المقاومة لم يعد يقتصر على المقاومة العسكرية، بل شهد في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين شكلاً جديداً يمكن تسميته بالمقاومة الثقافية. يتجلى هذا النوع من المقاومة في الدفاع عن التاريخ، والهوية القومية والحضارية، وتوعية الشعب الفلسطيني وتثقيفه بثقافة ثورية. لسميح القاسم، الشاعر الفلسطيني المعاصر، دور ريادي في هذا الموضوع؛ لأنه حاول في كثير من قصائده أن يؤكد هويته الوطنية والعربية التي تسعى الصهيونية إلى طمسها ليعيش الفلسطيني في عزلة حضارية، وتاريخية وثقافية، فأمن بقدرة الكلمة على أداء وظيفته الاجتماعية والفكرية في التوعية والتبصير والتغيير. بحثت هذه الدراسة بمنهجها الوصفي التحليلي معالم المقاومة الثقافية والفكرية في شعر هذا الشاعر المقاوم فتوصلت إلى أن الدفاع عن الهوية في أبعاده الوطنية والقومية والإنسانية، والوقوف أمام الجهل والخيانة، والتنديد بالتمييز الطبقي، والتعلق بالتاريخ الإسلامي، والدفاع عن اللغة العربية، والتطرق إلى الأمجاد الماضية للأمة العربية من المحاور الثقافية التي تناولها في شعره. هذه المحاور تمثل المقاومة الثقافية في شعر سميح القاسم.

الكلمات الرئيسية: الشعر الفلسطيني، المقاومة، الفكر والثقافة، الهوية والانتماء.

المقدمة

حظيت القضية الفلسطينية بكل أبعادها باهتمام الشعراء والأدباء داخل الأراضي المحتلة وخارجها، وأصبحت لها ولأساة شعبها مكانة عميقة في قلوبهم. يعد سميح القاسم أحد أبرز أعلام الشعر العربي الحديث ومن أبرز شعراء فلسطين المناضلين الذين دفعوا ثمن نضالهم ووطنيتهم خلف قضبان السجون. حظيت أشعار هذا الشاعر الكبير وقصائده بشهرة واسعة في الأوساط الأدبية العربية والعالمية، وظلت فلسطين هاجسه الكبير وهمه الأول والأخير. والمقاومة شعار لم يبتعد عن قصائد القاسم ومفرداتها لأنه كان يعرف تماماً تأثير الكلمة على المحتلين.

* قسم اللغة العربية، جامعة فرهنكيان، طهران، إيران.

فقد أعطاه النقاد والباحثون ألقاباً مختلفة منها «شاعر المقاومة الفلسطينية» و«شاعر القومية العربية» و«شاعر الغضب الثوري»¹. كان سميح مشعل الثقافة العربية في فلسطين المحتلة، ورمزاً للنضال، وخاض نضالات طويلة من أجل تثبيت الأسس الثقافية والفكرية للشعب الفلسطيني. تشبّث القاسم بكل ذرة من تراب وطنه وكافح وناضل من أجل هويته وفلسطينيته ووجوده.

دفع القاسم ثمن نضاله ووطنيته خلف قضبان السجون الإسرائيلية، فسجن مرات عدة بسبب أشعاره ومواقفه السياسية. شكّل مثلث الشعر المقاوم مع زميليه محمود درويش وتوفيق زياد بعد نكسة الخامس من حزيران عام 1967م.

بقي القاسم داخل الأراضي المحتلة وعاش المعاناة والألم والعنصرية والتمييز، فبثّ في شعره منذ بداية تجربته الشعرية في ديوان «مواكب الشمس» مضامين ثورية. وأما المسؤولية الكبيرة التي حملها على عاتقه فتمثّلت في الدفاع عن تراث الفلسطينيين، والوقوف أمام محاولات الصهاينة في تحريف هويتها الثقافية وتزويرها من دين، ولغة، وعادات وتقاليد؛ لأنّ التراث والهوية يشكلان أكبر دليل على أنّ الفلسطينيين أصحاب الأرض والتاريخ والحضارة. وهذه الميزة في شعره قلماً نجدها عند الشعراء المقاومين الآخرين بهذا النحو المبرز. ومن هنا، أحسنا بضرورة تخصيص بحث لها.

بيان المسألة وأهميتها

إنّ الشعب الفلسطيني لن يقدر على ترسيخ المقاومة أمام المحتلين إلا إذا كانت مقاومته واعية. ولا شك في أنّ المقاومة الواعية تستلزم نشر الوعي بأهداف المقاومة وإستراتيجياتها، وتعميق الأصول الثابتة لها، والتركيز على التاريخ العتيق للشعب المضطهد، وأصالة موطنه وثقافته.

عاش كثير من رواد أدب المقاومة خارج الأراضي المحتلة، وبقي عدد قليل منهم في موطنهم بعد احتلال أرضهم عام 1948 للميلاد وفي مقدمتهم سميح القاسم. هذا الشاعر المقاوم لم يترك أرضه، وبقي هناك بقوة، وشهد أنماطاً مختلفة من الاضطهاد كالتجهيل والعبرنة، والقمع الحضاري والثقافي، فحاول بشعره وأدبه أن يقاوم ويوعي شعبه إزاء ممارسات العدو المحتل من الغزو الثقافي والفكري «إن أدرك الشاعر بوعي تام جوهر الصراع مع المحتلين، فهو صراع يقوم بين قوميتين مختلفتين تمثل كل منهما ثقافة خاصة وأهدافاً بعينها وتحاول إحداهما نفي الأخرى، فما ممارسات الاحتلال إلا صورة حقيقية لثقافته وفكره، وما نضال أبناء الشعب الفلسطيني إلا دفاع عن عروبة الأرض والإنسان»².

من هذا المنطلق، نؤمن بأنّ للمقاومة الفلسطينية مفهوماً أوسع مما يظنه كثيرون، فهي ليست بمعنى حمل السلاح في المعارك ضدّ العدو الصهيوني فقط، إنّما يمكن أن تخوض ميادين أخرى كالمقاومة الثقافية، والدفاع عن الحضارة والثقافة والوقوف أمام العدوان على الوجود الإنساني والحضاري. هذا ما نهض به سميح القاسم في كثير من قصائده، ودافع عن ثقافة الشعب الفلسطيني وهويته وانتمائه إلى الأرض الفلسطينية المحتلة، فأصبح شوكة في عيون المحتلين.

تحاول هذه الدراسة بمنهجها الوصفي والتحليلي، من خلال جمع البيانات والمعلومات التي هي عبارة عن أبيات شعرية وقصائد وتحليلها، التوصل إلى دور الشعر المقاوم في الدفاع عن الهوية والثقافة والفكر الثقافي في شعر سميح القاسم. كما أنّها تحاول أن تجيب عن الأسئلة الآتية:

أ. ما أبعاد المقاومة الفكرية والثقافية لدى الشاعر؟

ب. كيف تجلّت المقاومة الفكرية والثقافية في شعر سميح القاسم؟

ج. ما الجديد في شعر المقاومة الفكرية والثقافية عند القاسم؟

الدراسات السابقة

حظي شعر سميح القاسم باهتمام الدارسين والنقاد، فلذا صدرت عنه دراسات عدة حاولت استجلاء زوايا أدبه المختلفة، منها ما يأتي:

1. رسالة ماجستير بعنوان «جدلية الموت والحياة في شعر سميح القاسم» لـ «إيمان حمّود» جامعة محمد خيضر بسكرة، سنة 2016، وقد توصل الباحث إلى أنّ القاسم قد انتصر على الموت جمالياً بما أبدعه من قصائد ودواوين، فتطرق إلى جماليات الموت من ناحيتين: الأولى، تمجيد الموت كونه عرساً للشهيد، والثاني وضع رؤية فردية مسندة بمرجعية ثقافية من خلال تدليل الموت والإنقاص من قيمتها.

2. مقالة معنونة بـ «تحليل تطبيقي درونمايهاي مقاومت در اشعار سميح القاسم، حسن حسيني، قيصر امينبور» لكبرى روشنفكر وآخرين، فصلية «بژوهشهاي زبان وادبيات تطبيقي» العدد 4، شتاء سنة 1390ش، صص 71.41. درس الباحثون فيها عناصر المقاومة في شعر القاسم وقارنوها بالأدب المقاوم في شعر حسن حسيني وقيصر امينبور مركزين على المشابهات والمفارقات بينهما، وقد توصلوا إلى أنّ الانتماء للوطن، والنضال ضدّ المحتلين، والبواعث الدينية والقومية والاحتجاج بالتخلي عن قيم المقاومة هي أهمّ العناصر في أشعار هؤلاء الشعراء الثلاثة.

- 3 . مقالة «تحليل گفتمان اشعار سمیح القاسم: بر اساس رويکرد بينافردی» ل «رقیه رستمپور ومينا بیگامی» نشرته مجله «نقد ادب معاصر عربي» نصف سنویة، السنة الثانية، العدد 1، 1390ش. درست الباحثان فيها تحليل الخطاب عند القاسم من منظور لساني ووازنتا بين قصیدتین للشاعر، إحداهما قبل حرب 1967م والثانية بعدها؛ لكشف التغير الذي حدث في مواقف الشاعر السياسية.
 - 4 . «صورة الأرض في شعر سمیح القاسم» أطروحة مقدّمة بجامعة محمد بوضیاف . المسيلة ل «رهف بوداود»، 2016م. تطرح هذه الدراسة إشكالية الصورة الشعرية في الشعر العربي، وكيف صور الشاعر الأرض من خلال الكلمات والألفاظ والعبارات؟ وإلى أي مدى نجح في تقديم هذه الصورة بأبعادها المختلفة؟ توصلت الدراسة إلى أن الأرض الفلسطينية ذات حضور مكثف في شعر القاسم، وقد حملت معنى الوطن والانتماء، كما أن الأرض الفلسطينية ظهرت من خلال بعدها الوطني، واستقى القاسم هذا البعد من خلال الواقع المعيش.
 - 5 . مقالة «التراث الديني في شعر سمیح القاسم شاعر المقاومة الفلسطينية» ل «محمد خاقاني، ومريم جلائي» في العدد الخامس من مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها الصادرة بجامعة سمنان الإيرانية عام 2011؛ هذه الدراسة توقفت عند البحث عن الدلالات الدينية ومدى قدرة الشاعر في التفاعل مع التراث الديني. توصلت الدراسة إلى أن توظيف التراث الديني يدل على أصالة الشاعر وثقافته الباهرة وقدرته على تقديم أفكاره في إطار التراث الديني.
 - 6 . «آليات الخطاب التهكمي واتجاهاته في شعر سمیح القاسم» ل «جمال طالبي قره قشلاقي وعسكر بابازاده اقدم» نشرتها مجلة آفاق الحضارة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية في عددها الأول من سنة 2020؛ هذه الدراسة ناقشت رؤية القاسم التهكمية في مواجهة العدو وتحديّه، وكذلك أسلوبه المتميز الذي جعله رائد هذا الفن الشعري.
- هذه الدراسات التي أشرنا إليها، رغم أنها تحمل في طياتها أموراً مفيدة متعلقة بالأدب الفلسطيني المقاوم، لا تمت بصلة إلى موضوعنا، وهي لم تتطرق إلى المقاومة الثقافية وأبعادها في شعر سمیح القاسم ولم تستجل زواياها، لكننا استفدنا من آراء أصحاب تلك البحوث لإغناء دراستنا.

مفهوم المقاومة

المقاومة في اللغة مأخوذة من قاومَه أي صارَعَه³. والمقاومة في أبسط تعريفاتها حقّ الدفاع عن النفس والأرض والعقيدة والقيم. ويمكن اختصار معنى المقاومة بالقول إنها «جملة ردود الفعل التي يمكن أن تكون تدابير إجرائية أو علاجية أو وقائية تتخذها جماعة أو نظام أو فرد في مواجهة التهديدات والأخطار والاعتداءات الخارجية أو الداخلية التي تترىص به أو تعترضه وتهدد كيانه بالإذابة أو الزوال، أو تعطل أعماله ومن شأنها أن تكبح تطاعته وآماله»⁴.

مفهوم الثقافة

إنّ الثقافة في اللغة هي العمل بالسيف، والثِّقاف خشبة تسوى بها الرماح، وثقف ثقفا أي صار فطنا (انظر: ابن منظور، نيل مادة ثقف). وفي القرآن الكريم استخدم الفعل «ثقف» بمعنى «ظفر بالشيء ووجده على جهة الأخذ والغلبة» كما استعمل في الإدراك. قال تعالى: «واقتلوهم حيث ثقفتموهم»⁵ أي حيث تجدونهم وتدركونهم في حل أو حرم⁶.

عرفت منظمة اليونسكو الثقافة بمعناها الواسع «أنها جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشكل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات»⁷.

بناء على ما سبق، فإنّ الثقافة تعدّ من الشؤون الرئيسة في المجتمعات الإنسانية، وهي في الواقع عبارة عن التفكير، والرؤى، والمفاهيم الاجتماعية، والقيم والعادات، وكلّ المعارف التي أنتجتها المجتمعات الإنسانية على مرّ الأجيال.

المقاومة في مفهومها العصري

إنّ الأدب المقاوم ظاهرة قديمة في الشعر العربي، ولعلّ جذور ذلك يعود إلى فترة ما قبل الإسلام. أما المقاومة بمعناها العصري فظهرت في القرن التاسع عشر، ثمّ تبلورت في الخمسينيات من القرن العشرين في صورتها الجديدة خاصة بعد الاحتلال الصهيوني للأراضي الفلسطينية عام 1948 للميلاد.

وقد أشعلت قضية فلسطين الوجدان العربي الثوري⁸. والأدب المقاوم في ساحة القضية الفلسطينية، يدعو إلى التصدي للعدوان الصهيوني واحتلاله، كما أنه يدعو إلى الثورة والاستقلال وتحرير الأراضي المحتلة. وعلى هذا الأساس، يسمّي أديباً مقاوماً كلّ من عبّر «عن اهتمامات قومه وعمّا يضطرب في نفسه وما يجول في فكره ملهباً للعواطف موقداً نار الحماسة مدافعاً بالمنطق والحجة عن الحقوق والحريات»⁹.

والواقع أن المقاومة منظومة متكاملة من وسائل الدفاع إعداداً واستعداداً، مواجهةً وقتالاً بالكلمة والموقف والسلاح. هذا يعني أن هناك مقاومة ثقافية وقانونية، سياسية وأدبية، اقتصادية وإعلامية وعسكرية... وكل نمط من هذه الأنماط يأخذ موقعه في تعبئة المجتمع ضد الظلم والفساد والقهر والاستبداد، والاحتلال والاستعمار... فالمقاومة تعبئ المجتمع فكرياً ونفسياً وتجعله يستعد لمجابهة مسلحة منظمة وواعية، أعظمها خطراً مجابهة المحتل الغاصب للأرض والوطن، إذ تستدعي تعبئة كل الطاقات الوطنية والقومية¹⁰.

المقاومة الثقافية وأهميتها

لم يعد شعر المقاومة يقتصر على شكل محدد، بل تنوعت موضوعاته فتحدث كثير من الشعراء المقاومين في شعرهم عن غربتهم الروحية، ومدح المقاومين، وشكوى الحصار، والانكسار، والتشريد، واستنهاض الهمم والدعوة للوحدة والاتفاق، وخيانة الحكام العرب وغير ذلك. والواقع أن مفهوم الأدب المقاوم تغير في القرن الماضي، فشهدت الثمانينيات والتسعينيات تطوراً واضحاً في مفهوم شعر المقاومة بالنظر إلى عظم تحديات الهيمنة الاستعمارية وتغير مظاهرها وأساليبها من أشكال الغزو العسكري والاحتلال المباشر إلى الاستعمار الجديد والاستقطاب والتبعية والغزو الفكري والتطبيع والعولمة والحرب الافتراضية... وظهر مفهوم المقاومة الثقافية بتعزيز قوى الذات الداخلية على أساس تعضيد الوعي بالتاريخ والانغمار بالوجدان الوطني وتصليب عزيمة النضال من أجل الوجود الحر والكرام والمستقل دفعا لمعضلاته الكثيرة الناجمة عن العدوان الداخلي المتواطئ أو الخادم للعدوان الخارجي أحياناً، وصون الهوية القومية بابتعاث عناصر الذات العربية الراسخة¹¹. وعلى هذا الأساس ليست المقاومة الثقافية إعلان الحرب وحمل السلاح ضد طرف آخر، بل يتجلى هذا النوع من المقاومة - كما سبق - في الدفاع عن التاريخ والهوية القومية والحضارية، واللغة وتعليمها ومواجهة التحديات السياسية والاجتماعية إلى جانب مواجهتها للظواهر السلبية في المجتمع. وبهذا «اتسع مفهوم المقاومة بدخوله في أمداء المقاومة الثقافية الفسيحة، وبات لصيقاً بمفاهيم الصمود والتضامن والشجاعة والوعي الذاتي والدفاع عن الحقوق المشروعة»¹².

والمقاومة الثقافية تحظى بأهمية كبيرة على ساحة النضال مع المحتلين. يقول سماح إدريس في افتتاحيته في مجلة الآداب البيروتية في عدد أيار وحزيران حول أهمية مشروع المقاومة الثقافية: «لعل المؤطر الأساسي لمشروع المقاومة الشاملة هو مؤطر ثقافي بالدرجة الأولى»¹³. وقد عقدت مؤتمرات كثيرة حول الثقافة الفلسطينية وضرورة الدفاع عنها والحيلولة دون طمس الثقافة والهوية الفلسطينية على أيدي المحتلين، منها: الندوة العالمية التي عقدت في آذار 1986 للميلاد. وقد أوحى البيان الختامي لها بعدة نقاط كان أهمها أن الدفاع عن الثقافة والتراث العربي

في فلسطين يقع على عاتق مثقفي العالم جميعهم وأيضاً على عاتق المؤسسات الثقافية في العالم كله، وعلى دراية جادة ومراقبة ما يجري داخل فلسطين من طمس التراث والثقافة»¹⁴.

يبدو من خلال ما قدمناه من البحوث النظرية للمقاومة الثقافية أنها لا تعتقد أن الاحتلال هو احتلال الأرض فحسب، بل ترى أن الاحتلال الثقافي بما فيه إزالة الهوية والثقافة والحضارة واقتلاع جذور الإنسان العربي من أرضه شكل آخر من الاحتلال. فلماذا يجب على الشاعر المقاوم أن يؤدي دوراً بناءً في الدفاع عن هويته وثقافته، ويحمل على عاتقه مهمة توعية الإنسان العربي والأوساط الدولية وتنبهه على الموقف الصهيوني المعادي للشعب فكراً وثقافياً. وهذا ما قام به سميح القاسم في معظم أشعاره.

أبعاد المقاومة الثقافية في شعر سميح القاسم

أخذت المقاومة من حيث الوسائل المستعملة أشكالاً عديدة، منها سلمية، ومنها مسلحة. والمقاومة الفكرية والثقافية نوع من المقاومة السلمية. وقد أخذ هذا النوع من المقاومة أبعاداً مختلفة في شعر سميح القاسم، نذكر فيما يأتي أهمها:

الهوية الثقافية والانتماء

اشتق مصطلح الهوية من الضمير «هو» بمعنى جوهر الشيء وحقيقته. والهوية في تعريفها البسيط «مجموع السمات المميزة لشعب من الشعوب، متمثلة في اللغة والعادات والتقاليد والثقافة والمواقف المشتركة بصدر القضايا المصيرية»¹⁵. تتعرف الهوية بعناصر مختلفة مثل اللغة والثقافة والوعي الجماعي ومعايير الحياة الاجتماعية المتوارثة. أما الهوية الثقافية لأي شعب فهي القدر الثابت والجوهري والمشارك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارته من غيرها من الحضارات. ومن الشعور بتلك السمات الأساسية، يحس الإنسان بالهوية والانتماء، ويدرك بأنه ليس وحيداً، بل يشترك مع عدد كبير من الناس في كثير من المعطيات والمكونات، وينتمي إلى ثقافة تتشكل من جملة من المعايير والرموز والصور. والهوية الثقافية الفلسطينية «تتميز بكونها تستند إلى وجود تاريخ من الصمود والنضال الفلسطيني مضمخ بدماء الشهداء وعرق المناضلين في مواجهة عدو استيطاني فاشي إحلالي بدعم من كل دول العالم الاستعماري»¹⁶.

إنّ الأدب المقاوم أدب ينتمي إلى الهوية التي تؤسس طهارة الانتماء وجمال الحيوية والقدرة التي تطوف بالقيم الأصيلة التي يعيش عليها أبناء المجتمع. «أكد الأدب المقاوم في إطار الانتماء إلى الهوية القومية/ العروبة أنه أدب إنساني يعبر عن هويته الحضارية المنفتحة على الرسائل الدينية ومبادئ حقوق الإنسان بعكس ما هي عليه نظرية الحركة الصهيونية المؤمنة بالقتل شريعة لها وباغتصاب أرض الآخر وتهجيرها منها عنوة وقهراً»¹⁷.

الحديث عن الهوية والانتماء يشكل جزءاً كبيراً من قصائد سميح القاسم. وكثيراً ما نرى الشاعر يتحدث عن هوية الشعب الفلسطيني المهمشة على أيدي المحتلين، كما يتحدث عن العنصرية التي يمارسها العدو الصهيوني في الأراضي المحتلة. أما الحديث عن الهوية والانتماء في شعر القاسم فيمكن إدراجه ضمن ثلاثة مواضيع:

الأول: الهوية في بعدها الوطني

إن المقاومة الثقافية في شعر سميح القاسم تنبع أحياناً كثيرة من منطلق الهوية الوطنية أي الوجود على الأرض والثبات فيها، والوقوف أمام الترحيل والهجرة، ورفض النزوح والإبعاد، والإخلاص في الانتماء إلى الوطن. و«هذا الانتماء لم يكن مناقضاً أو معارضاً للانتماء القومي. فالعلاقة التي ربطت الفلسطيني بالهوية والوطن هي ذاتها التي ربطت الأدياء العرب بفلسطين بوصفها جزءاً أصيلاً من الأرض العربية فضلاً عن أن تاريخها وثقافتها هي ثقافة واحد فيهم وتاريخه... وهكذا كانت رؤيتهم لأي أرض عربية أيا كانت ولادة الأديب في لبنان أم في مصر أم المغرب...»¹⁸. ولا شك في أن الهوية الانسانية الشاملة والأرقى هي الهوية الوطنية. والقاسم أحسّ بحاجة الشعب الفلسطيني للحفاظ على هويته الوطنية؛ لأنها مستهدفة من الصهاينة الذين بنوا وجودهم على مرتكزات أساسية منها: «فلسطين وطن بلا شعب لشعب بلا وطن» وأكد الهوية الوطنية ضرورة نضالية لتأكيد الوجود والحقوق في قصيدة «الأرض من بعدي»:

أرضي التي .. بعِظامِ أجدادي

قلبتُها .. وجبَلتُ أولادي

أرضي التي دَللتُ تُربَّتَها

ورَعيتُ طولَ العُمرِ حِنطَها¹⁹.

أكد القاسم هنا أن الأرض بمثابة الأم التي تحمي أبناءها من الضياع والشتات، والتي ترمز إلى الحنان والعطف فعلاً بنفس مواصفات الأم الحقيقية. إذن ليست الأرض في تفكير الشاعر إلا رمزاً لوجوده وكيانه الذي ورثه عن أجداده والذي جبل بدمهم.

حاول سميح رغم مساعي الاحتلال الصهيوني على إزاحة هوية الفلسطينيين وتجهيلهم أن يحافظ على هويته بكل إمكانياته الفكرية. هذا من جانب، ومن جانب آخر حاول أن يقوم بتوعية الجماهير العربية داخل الأراضي المحتلة للحيلولة دون الانصهار والذوبان والتلاشي في العدمية والاضمحلال. بل على العكس، كان يغرس في نفوسهم الإصرار والتحدي والصمود ممّا ساعد على

الحفاظ على الملامح العربية، والمحافظة على مقومات الوحدة الوطنية كاللغة والدين. يقول في قصيدة «حبيبي ومدينتنا»:

كُلُّ المَوَائِدِ .. فِي المَقَاهِي كُلِّهَا
مَحْجُوزَةٌ فَلَأَيَّ سَقْفٍ نَلْجَأُ
نَعَمْتَ بِمِرْفَقِنَا النُّوَارِسُ وَاحْتَمَّتْ
بِقِبَابِنَا .. وَبِنَا يَضِيقُ المَرْفَأُ؟
هَذِي المَدِينَةُ نَحْنُ بَعْضُ بُيُوتِهَا
كَيْفَ انْتَهَيْنَا .. وَهِيَ فِينَا تَبْدَأُ
هَذِي المَدِينَةُ .. مَنَ أَحَالَ زُهُورَهَا
وَحَلًّا .. وَرَاحَ بِوَحْلِهَا يَتَوَضَّأُ²⁰.

حاول الشاعر في السطور السابقة تحريض البعد الوطني من أجل إنكفاء روح التعاون وإنكفاء الوعي الاجتماعي والسياسي، ولفت انتباه الجماهير، والمطالبة بحقوقهم والدعوة إلى الوحدة الوطنية، وأن يقفوا أمام التحديات التي خطت لاقتراعه من جذوره الفلسطينية وحتى العربية.

يقول سميح في قصيدة «بطاقة تذكير» في إطار تأكيد هويته الوطنية:

أَنْتَ لَا تَجْهَلُ عُنْوَانِي وَتَارِيخِي وَأَسْمِي
يَا ابْنَ عَمِّي
فَلَمَّاذَا تَسْكَبُ السَّمَّ عَلَى بَرَكَةِ سَمِّي؟
أَنْتَ لَا تَجْهَلُ أَصْفَادِي وَأَصْفَادَكَ يَا هَذَا
.....
إِنِّي أَعْلَنْتُ حُبِّي
لِبِلَادِي وَلِشَعْبِي²¹.

ذكر الشاعر هنا تاريخه وعنوانه واسمه المتجذر في وطنه منذ قرون؛ لأن «المعرفة بالنسبة للإنسان سر وجود وعامل رئيس في تشكيل ذاته، ورسم معالم واقعه، والتنبيؤ بمستقبله»²².

وأحياناً كثيرة نرى القاسم يوظف الرموز الدينية للإشارة إلى هويته الوطنية وأصالته، مثل قصة يعقوب النبي:

أَحْبَائِي أَحْبَائِي

إِذَا حَنَّتْ عَلَيَّ الرِّيحُ

وَقَالَتْ مَرَّةً: مَاذَا يَرِيدُ سَمِيحٌ؟

وَشَاءَتْ أَنْ تَزُودَكُمْ بِأَنْبَائِي

فَمَرُّوا لِي بِخَيْمَةِ شَيْخِنَا يَعْقُوبَ

وَقُولُوا إِنِّي مِنْ بَعْدِ لَثْمِ يَدَيْهِ عَن بَعْدِ

أُبَشْرُهُ.. أُبَشْرُهُ

بَعُودَةِ يُوسُفَ المَحْبُوبِ²³.

ويعقوب رمز للإنسان الفلسطيني المتشرد من وطنه، كما أنه رمز لنهاية الفراق وعودة الابن إلى الأب بعد تحمل الآلام. والشاعر بهذا التوظيف للرمز الديني يبشّر بعودة الوطن إلى صاحبه الحق.

والثاني: الهوية في بعدها القومي

يمثل الحس القومي العربي، الباعث الأول في شعر سميح القاسم الذي فجرته نكبة الشعب الفلسطيني عام 1948م. وهو ألح على عربيته عندما قال: «أتضايق حين يقولون عني أنا الشاعر الفلسطيني. أحس أنهم سيحشرونني في زاوية إقليمية، أنا لست شاعر فلسطين فقط.. لكن أنا شاعر عربي أيضاً وتحديث عن هموم الأمة العربية.. وانتمائي قومي عربي شامل»²⁴. ومن هذا المبدأ تحدث سميح القاسم في قصائد كثيرة عن هويته القومية خاصة في قصائد «أختي صنعاء» و«من هنا تعبر النسور» و«أندلسية» و«عودة عمر المختار» واعتزّ بعربيته في هذه القصائد، فحاول من خلالها استخدام بعض الرموز القومية لإبراز عروبه وتعميقها. يقول في قصيدة «ليلي العربية»:

وَمَضَتْ لَيْلِي إِلَى الْحَيِّ.. وَصَاحَتْ

يَا لثَارِ الْفَارِسِ الْمَذْبُوحِ

بِالْأَيْدِي الْغَرِيبَةِ

يَا لثَارَاتِ الْعُرُوبَةِ

يَا.. لثَارَاتِ.. الْعُرُوبَةِ²⁵.

رمز القاسم هنا بـ «لَيْلِي» إلى القومية العربية وثورتها ضد الاستعمار، كما أنه رمز بها إلى الانتفاضات التحررية في العالم العربي. وأنشد في قصيدة «هكذا»:

مِثْلَمَا يَشْمَخُ بَيْنَ الْغَيْمِ مَصْنَعُ

مِثْلَمَا يَنْشُدُ بَعْضُ الصَّحْبِ مَطْلَعُ

مِثْلَمَا يَبْسِمُ فِي وَدٍّ غَرِيبٍ لْغَرِيبِ

مِثْلَمَا يَرْجِعُ عَصْفُورٌ إِلَى الْعُشِّ الْحَبِيبِ

مِثْلَمَا يَحْمِلُ تَلْمِيزَ حَقِيبِهِ

مِثْلَمَا تَعْرِفُ صَحْرَاءُ خُصُوبَهُ

هَكَذَا تَنْبِضُ فِي قَلْبِي الْعُرُوبَةُ²⁶.

كلّ هذه السطور أتى بها القاسم لتأكيد عربيته وأنّ الدم العربي يجري في عروقه وينبض قلبه بحبّ قوميته العربية.

وفي كثير من الأحيان نرى الشاعر يعلن عروبة أرض فلسطين وتاريخها، ويتحدّى المحتلين الذين يثرثرون أن الله أعطاهم هذه البلاد، بأن يأتوا بشهودهم على ذلك. في حين أن أجداده هم شهوده:

وَيَكُونُ هُنَاكَ شُهُودِي

وَطَنِي وَجَدُودُ جَدُودِي

مِنْ قَبْلِ التُّورَةِ وَقَبْلِ الْإِنْجِيلِ وَقَبْلِ الْقُرْآنِ⁽²⁷⁾.

أكد الشاعر هنا الهوية العربية للأراضي المحتلة التي تمتد فيها جذوره. وينتهي إليها نسب شعبه وأهله، في حين أن الآخرين لا علاقة لهم بها. فقد كان الشاعر وفقاً لهذا الحق المشروع في أرض الآباء والأجداد يخاطب يوشع بن نون قائلاً:

يا يوشعَ بنَ نونِ

منَ قرنِ تحفِرُ في لَحْمي

تحفِرُ في لَحْمي سنجةَ ناطِقِكِ الرِّسْمِيِّ وناطِقِكِ الشَّعْبِيِّ

فأسمِعْ يا يوشعَ

أنذا أتكلُّمُ باسمِ الشعبِ العَرَبِيِّ

من قِمَمِ الأطلسِ حتَّى قِمَمِ ظفَّارِ

حتَّى قِمَمِ حيدرِ والحَرْموقِ حتَّى قِمَمِ صُنِينِ²⁸.

والهوية القومية واضحة في هذه الأبيات إذ يعتبر الشاعر نفسه مندوب الشعب العربي وناطقه الرسمي الممتد من قمم الأطلس حتى قمم صنين.

والثالث: الهوية في بعدها الإنساني

يشكل التركيز على الهوية والانتماء إلى أرض الوطن عنصراً مهماً في شعر سميح القاسم. وأحياناً كثيرة نراه في مقاومته الثقافية ضد الصهاينة يتعامل مع الآخر عن طريق الحوار الإنساني، فيحاول أن يستقي آراءه من التاريخ الإنساني.

إن اليهود في تفكير الصهاينة هم المتفوقون على الفلسطينيين العرب. هذه الفكرة جعلت مفكري الصهاينة ينظرون إلى الصراع بينهم وبين العرب على أنه «صراع بين حضارة وبين متوحشين»²⁹. وقد بلغت الرؤية الدونية للفلسطينيين درجة عداهم فيها بعض مفكري الصهاينة بدائيين: «هل سنتنافس مع البدائيين الموجودين هناك في جميع المزايا الفاسدة مثل التعطش للدم والانتقام وغيرهما، والتي تشكل جوهر الحياة هناك؟»³⁰ فنرى القاسم في قصيدته «ثورة مغني الربابة» يرد على هذه الفكرة العنصرية السائدة عند الصهاينة فيتحدث عن حضارته القديمة ومجد الرسول الأعظم، صلى الله عليه وسلم، والصحابة وما قاموا بها من الفتوحات:

غَنَيْتُ مُرْتَجِلاً عَلَى هَذِهِ الرَّبَابَةِ أَلْفَ عَامٍ

مُذُ قِيلَ: بِاسْمِ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ

فَامْتَشَقُوا الحُسامَ

وَلَكَزْتُ فِي شَفَفِ جَوَادِي

وَأَنْطَلَقْتُ .. لِأَلْفِ عَامٍ

عَمُرْتُ فِي شِيرَازَ قَصِراً

وَأَبْتَنَيْتُ بِأَصْبَهَانَ

رَدَهَاتِ مَعْرِفَةٍ

وَعَدْتُ إِلَى الحِجَازِ بِطَيْلَسَانَ

وَعَلَى دِمَشقَ رَفَعْتُ رَايَاتِ النَّهَارِ مَعَ الأَذَانِ

وَجَعَلْتُ حَاضِرَةَ الكِنَانَةِ

فِي تَاجِ مَوْلَانَا المَعزِ، جَعَلْتُهَا أَعْلَى جُمانِهِ³¹.

والطريف أن القاسم يتضامن مع الشخصيات العالمية للتركيز على هويته الإنسانية، وعلى أن الحق سينتصر أمام الظلم. فلم يجد شخصية أفضل من فيدل كاسترو الذي يعد رمزاً للمقاومة ضد الولايات المتحدة الأمريكية، والذي حطم أغلال شعبه ونجاهم من الذل والعبودية:

«قُدُماً .. قُدُماً .. فِي هَذَا الدَّرَبِ

يَا حَاطِمِ أَغْلالِ الشُّعْبِ

قُدُماً .. يَا أَجْمَلَ شُعْلَةٍ

فِي عَتَمَةِ آمريكا المُحْتَلَّةِ

قُدُماً .. مَا دَامَتْ فِي البَيْتِ

أَشْتَاتُ الأوباشِ الفَاشِسْتِ

قَدَمَا .. الفَجْرُ وَقُضبانُ السُّكَّرِ .. أَسْلِحَةٌ لَيْسَتْ تُقَهَّرُ»³².

وقد تضامن القاسم مع باتريس لومومبا في سبيل تحقيق هويته الإنسانية؛ لأنه رمز للإنسان المقهور والمضطهد في نضاله ضد الاستعمار في إفريقيا:

«باتريس! صَوْتُكَ هَزَّ أَسْمَاعاً وَفَتَحَ أَعْيُنًا فَإِذَا عَيُونُ الشَّرِّ جَاحِظَةٌ وَأَجْفَانُ الخَنَا وَتَسَلَّلَتْ رُؤْمُ الأَفَاعِي نَحْوَ عَشْكَ مُوهِنًا»³³.

ولعل هذه الروح الإنسانية الثائرة التي يهتف بها الشاعر جعلته يسير خطوة إلى الأمام في قضيته، لينقلها من الإطار الإقليمي والقومي إلى الإطار الإنساني والعالمي، من خلال التحامه بالثورات وحركات التحرر العالمية.

التنديد بالتمييز الطبقي

من الموضوعات الثقافية المهمة التي تناولها سميح القاسم في شعره التمايز الطبقي؛ هذه المسألة تنبع من اشتراكية الشاعر الذي أعلن صراعه ضد الرأسمالية، وناصر الإنسان ضد قوى الاستغلال. «والشعر الفلسطيني أول شعر عربي تحدث عن الصراع الطبقي وبين أثره في الحركة الوطنية وفي معركة البلاد ضد الاستعمار والصهيونية»³⁴. تحدث القاسم في كثير من قصائده مثل «المذلة»، و«لو» عن الآمال الإنسانية المنشودة وتحقيق كرامتها لإذابة الفوارق الطبقيّة. ولعل قصيدة «انتقام الشنفرى» أشهر قصيدة تحدث فيها عن التمايز الطبقي، واتخذ فيها من شخصية هذا الشاعر الجاهلي قناعاً لإبراز ثورته وتمرده على الظلم والطغيان والاستبداد والفوارق الطبقيّة. يقول فيها:

أنا الشنْفَرَى

رَسُولُ الصُّعَالِيكِ والأَغْرَبِيَّةِ

بُعِثْتُ لِأَنْقِضَ مَجْدَ الأَبَاطِيلِ مِنْ أَسِهِ

لَأُحْرِقَ يَابِسَ لَيْلِ الطَّوَاغِيَّتِ والأَخْضَرَ

لَأَسْحِبَ مِنْ أَنْفِهِ عَالَمَ العَسْفِ والمَعْصِيَاتِ

إلى شَمْسِهِ / أنا الشنْفَرَى

حَبِيبُ الأَنَاشِيدِ، طِفْلُ المَآسِي، يَتِيمُ البِرَاءَةِ³⁵.

والأبيات واضحة لا تحتاج إلى أيّ تعليق إن يظهر بوضوح أن القاسم تقمص شخصية الشنفرى الذي يمثل الطبقة الكادحة الفقيرة في النضال مع الطبقة الغنية. وقد أعلن الشاعر

بوضوح أنه يحمل على عاتقه مسؤولية إنقراض ظهر الطواغيت الذين يمتصون دماء الطبقات العاملة.

والقاسم يعود في قصيدة «طانيوس شاهين» إلى الفكرة نفسها وينشد:

تَجْهَلُ الكَرْمَةَ أَنَّ الشَّارِبِينَ

دَمَهَا

لَمْ يَصْنَعُوا تَارِيخَهَا

يَجْهَلُ الصَّفَصَافُ أَنَّ الْغَارِسِينَ

أَفْسَحُوا الظِّلَّ لِقِطَاعِ الطَّرِيقِ

تَجْهَلُ الأَرْزَةَ أَنَّ الحَاطِبِينَ

آثَرُوا اللُّقْمَةَ فِي بَرْدِ الشِّتَاءِ

وَلِذَا تَنَعَّمَ بِالِدَّفْعِ أَكْفُ الأَخْرِينِ³⁶.

يظهر من خلال السطور السابقة أن التاريخ الإنساني يعاني من الفوارق الطبقيّة الحادّة، وأن الأغنياء يأكلون ما تكسبه أيدي الطبقات العاملة. واستلهم القاسم شخصية طانيوس شاهين وهو أول عربي نظم في التاريخ الحديث ثورة فلاحية على الإقطاع. ولا شك في أن هذه الرؤى في الدفاع عن الطبقات الفقيرة الكادحة تنبع من أفكاره الاشتراكية.

المقاومة أمام الجهل والخيانة والتفرقة

كان تشويه الثقافة الإسلامية والعربية وإشاعة الجهل بين الناس من الأهداف الرئيسية للاحتلال الصهيوني. فكان من الطبيعي أن يردّ عليه شعراء المقاومة. يقول القاسم بهذا الصدّد في قصيدة أطفال 1948:

فَلَنَجِّنِ مِنْ غَرَسِ الجَهَالَةِ والخِيَانَةِ والجَرِيمَةِ

فَلَنَجِّنِ مِنْ خُبْزِ التَّمْزِقِ.. نَكْبَةَ الجُوعِ الفُضَالِ³⁷.

يؤنّب الشاعر أبناء الأمة الإسلامية والعربية ويشحذ عزائمهم ويثير حفيظتهم كي لا يستكينوا إلى الجهالة والخيانة والتفرقة، بل ينتفضوا في وجه المحتلين لإنقاذ فلسطين من أيدي المحتلين. ليست هذه السطور الشعرية إلا دعوة إلى اليقظة، وتقريباً يخاطب الذين خانوا واستكانوا أمام الاحتلال.

تشويه اللغة العربية وسلب المعالم الثقافية

قلنا آنفا إن احتلال فلسطين لم يكن احتلال الأرض فحسب، بل كانت إسرائيل تحاول أن تبسط هيمنتها في جميع الأصعدة خاصة الثقافية منها. و«تعمل من أجل الإجهاز على الكيان الحضاري والمقومات الثقافية، لأن هذه الإجهاز هو بالفعل التدمير الحقيقي للأمة والقضاء الحاسم على وجودها»³⁸. يمثل تشويه اللغة العربية وسلب معالم الحياة الإسلامية والعربية أحد وجوه الهيمنة الثقافية التي قام بها الصهاينة في إطار غزوهم الثقافي. وقد كشف سميح القاسم الغطاء عن هذه الخطة في قصيدته المعنونة «قصة طويلة جدا»:

في قُرُونِ الهَمَجِيَّةِ

عَلِّمُوا كُلَّ أَنْوَاعِ اللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ

سَلِّبُوا وَجْهَهَا

سَلِّبُوا لَوْنَهَا

سَلِّبُوا صَوْتَهَا

سَلِّبُوا زَيْتَهَا المَوْرُوثَ

مِنْ أكتَافِ جَدِّ لِحْفِيدِ

وَعَدَاةَ اعْتَقَلُوهَا مِنْ جَدِيدِ

سَأَلُوا

مَا اسْمُكَ يَا بِنْتِ؟

فَرَدَّتْ فِي هُدُوءٍ وَرَوِيَّةِ

عَرَبِيَّةً³⁹.

يظهر من قول الشاعر أن الصهيونية قد أحكمت الخناق على الأمة العربية، إن تمكنت من غزوها ثقافياً وفكرياً حتى شوّهت لغتها وسلبتها معالم وجهها العربي، حين تلون أبنائها بألوان الغرب في حالة من الانبهار الحضاري، الذي دفعهم باتجاه التبعية للغرب؛ الأمر الذي أفقد العربية ثقلها الحضاري.

الارتباط بالتاريخ الوطني

إن أرض فلسطين مهبط الرسالات السماوية التي بعثت النور والمعرفة للعالمين. والقاسم بهذه الرؤية حاول أن يعلن تاريخه العتيق من جهة، وأصاله موطنه من جهة أخرى:

نَحْنُ مِنْ أَرْضٍ يُقَالُ

إِنَّهَا مَهْدُ النَّبَوَاتِ يُقَالُ

بَسَطَتْ نُورًا وَعَرَفَانَا عَلَى الدُّنْيَا

ويقول واعدًا بالعودة من رحم الشدائد والمعاناة والغربة:

وَجَدُّورُنَا فِي رَحْمِ هَذِي الْأَرْضِ مُمْتَدَّةٌ

سَتَنْظَلُ تَخْفِقُ رَايَةَ الْعُودَةِ

سَتَنْظَلُ تَخْفِقُ رَايَةَ الْعُودَةِ⁴⁰.

ويستلهم الآيات القرآنية في إثبات التاريخ العتيق لموطنه:

أَرْضُنَا

مِنْ عَسَلٍ يَحْكِي بِهَا الْأَنْهَارُ يَحْكِي

مَنْ جَلَبَتْ أَنْجَبَتْ يَحْكِي كِبَارُ الْأَنْبِيَاءِ

خاطب القاسم أصحاب الديانات السماوية الثلاث؛ لأنه يعدّ وطنه المحتلّ مهد الأديان السماوية. ولا شك في أن هذه الأوصاف للأرض المقدسة استلهمها الشاعر من هذه الآية الشريفة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾⁴¹.

اختصّ القاسم القدس بثلاث قصائد: «زنايق لمزهرية فيروز» و«فسيفساء على قبة الصخرة» و«أخذة الأميرة يبوس» للقدس. هذه القصائد تدلّ على علاقة الشاعر الوطيدة بهذه المدينة كما تدلّ على سعة ثقافته الدينية والتاريخية التي حاول توظيفها في شعره. والمراد من كلمة «يبوس» في القصيدة الأخيرة هو الاسم الأول لمدينة القدس (منسوب إلى اليبوسيين، بناء القدس الأوائل، وهم بطن من بطون العرب القدماء) مؤكداً الامتداد التاريخي للمدينة، ما يجعل المتلقى يشعر بمكانتها التاريخية⁴². نقرأ في تضاعيف تلك القصيدة السطور الآتية:

جَزَعًا مَسْكُونًا بِالْحَمَى

يَرْقُمُ حَيَّوتَ الْأَعْمَى

فِي لَوْحِ الْأَجْرِ الْمَدْهُونِ بِرَيْتِ الْمَعْبِدِ

أُخِذَتْ حَيَّوتَ الرَّائِي

لَأَمِيرَةِ مَدُنِ الدُّنْيَا وَنِسَاءِ الْأَرْضِ «يَبُوس»⁴³.

أشار القاسم في هذه السطور إلى ما يرقمه حيوت الأعمى في لوح الأجر المدهون بزيت المعبد، ما يعتقد به من وشم وعلامات سحرية تحرس أميرة مدن الدنيا ونساء الأرض (يبوس) من غدر الغادر وطمع المحتلين، لتظل صامدة في وجه الغزاة رابطة حاضرها بماضيها.

الدعوة إلى الوحدة

إن القاسم دعا في بعض قصائده إلى الوحدة والتضامن وقوة التعاضد وعمق التلاحم في الأخوة العربية؛ كما دعا إلى غض النظر عن الجنسيات السياسية والمعتقدات الدينية في حماية الفلسطينيين. يقول في قصيدة «دبكة الموت»:

لَنْ أَقُولَ

اللُّبْنَانِيَّ أَخُو الْفِلَسْطِينِيَّ

لَنْ أَقُولَ

الْمُسْلِمَ أَخُو الْمَسِيحِيَّ

لَنْ أَقُولَ

تَأَخِينَا هِلَالاً وَصَلِيْباً

لَكِنِّي أَقُولُ

الثَّائِرُ أَخُو الثَّائِرِ⁴⁴.

تشكل وحدة الدم العربي في شعر القاسم واحدة من أهم ركائز القومية العربية التي اعتمد عليها في التعبير عن وحدة الهوية العربية، حتى أصبح الجرح العربي واحداً والنزف العربي واحداً:

اِخْتَلَطَ الدَّمُ بِالْدَّمِ وَمَا عُدْتُ أَعْرِفُ جُرْحِي مِنْ جُرْحِهِمْ⁴⁵.

استلهام الأجداد والبطولات الماضية

إنّ العودة إلى التاريخ والأجداد الماضية تعني الأدب فكراً وثقافياً إن يكشف الأديب بذلك عن عراقته الحضارية في نضاله الفكري والثقافي مع العدو المحتل الذي يزعم أنّ الأرض لها. لقد «قيض الله للعرب ماضياً زاهراً وحضارة راسخة الأصول، بوأتهم مكانة مرموقة بين الأمم في تاريخ البشرية»⁴⁶. فعلى هذا الأساس، استلهم القاسم في بعض قصائده الأجداد السالفة وما كان للمسلمين فيها من قوة وعزة، عسى أن تكون شحنة تعيد الروح إلى نفوس الفلسطينيين في مواجهة الاحتلال الصهيوني. والشاعر يؤمن بأن له ماضياً خالداً حيث يقول:

سَأُوَظِبُ

لَا لَنْ أُنْسَى

يَا جَرَحَ الْأَعْدَاءِ الْأَقْسَى

يَا جَرَحَ الْأَعْدَاءِ

وَصَدِيقَ الشَّرْفَاءِ

قَسَمًا بِالْجَرَحِ الْوَاحِدِ

فِي مَاضِي شَعْبِنَا الْخَالِدِ

قَسَمًا بِالشَّمْسِ

مَعًا.. سَتَفَكَّ مِنَ الْأَسْرِ الدَّائِمِيِّ.. الشَّمْسَا⁴⁷.

ومن خلال النص يبدو أن الشاعر أقسم بالجرح الواحد للأمة العربية أي فلسطين أن ينجوها من أسر المحتلين. وهذه الأسطر الشعرية ملأى بالألفاظ الدالة على المقاومة والثورة. ففي قصيدة أخرى تحت عنوان «قد نمهل لكن لن نهمل» استلهم قصة طوفان نوح، عليه السلام، ويقول:

لَنْ يُطْفِئَ نَارَ إِرَادَتِنَا

لَنْ يُطْفِئَ نُورَ مُحِبَّتِنَا

طُوفَانُ الدَّمِّ

قُولُوا لِلجَدِّ الطَّيِّبِ نُوحِ

هَيْئُ فُلُوكَ مِنْ أَجْسَادِ الشُّهَدَاءِ

وَاصْعَدْ يَا نُوحُ عَلَى طُوفَانِ الدَّمِ

بَعْدَ الشَّدَّةِ يَرْسُو فُلُوكَ فِي قِمَمِ الزَّيْتُونِ الْخَضِرَاءِ⁴⁸.

وبعد هذا النداء الصارخ التفت الشاعر إلى صفحات التاريخ الإسلامي المشرق في تعبير قوي لاستثارة العواطف وحفز المشاعر ليت رسم الجيل المسلم خطا الأجداد. وفي قصيدة «الصحراء» تقمص شخصية بلال مؤذن الرسول الأعظم ودعا إلى تحطيم أصنام الصهيونية والمقاومة أمامهم:

بِلالٌ مِنَ الدَّمِ وَالنُّورِ

قَامَ يُؤَدِّنُ فِي قِمَّةِ المَوْتِ

مَنْ دَاهَمَ الصَّوْتُ بِالصَّوْتِ

مَنْ أَشْعَلَ النَّارَ فِي سِدْرَةِ المَنْتَهَى

فَزَلْزَلَتْ الأَرْضُ زَلْزَالَهَا

.... وَهَذَا رَسولٌ جَدِيدٌ

يُحْطَمُ أَصْنَامُكَ العَاتِيَةَ

وَهَذَا بِلالٌ جَدِيدٌ

يُؤَدِّنُ مِنَ قِمَّةِ الهَاوِيَةِ

وَهَذَا كِتَابُكَ

قَوْمِي نُحَارِبُ⁴⁹.

وفي قصيدة «نشيد الختام» يعتز القاسم بدور أمته في العصور الماضية فيقول:

أَبْدَأُ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ

رَايَاتُنَا بَصَرَ الضَّرِيرِ

وَصَوْتُنَا أَمْلُ العَرِيقِ

... وَانظُرْ إِلَى الأفقِ البَعِيدِ

فَهَنَّاكَ مَنجَمُ أنبياءِ

جَلَدُوا الْقِيَاصِرَةَ الطُّغَاةَ الْأَغْبِيَاءِ

وَتَرَمَدُوا لِتَعِيشَ فَوْقَ رِمَادِهِمْ شَعْلُ الضِّيَاءِ⁵⁰.

اعتزَّ الشاعر بالدور الريادي للأمة العربية في العصور السابقة، وذكر أن أرضه موطن الأنبياء الذين كسروا القياصرة الطغاة، وأناروا طريق الهداية أمام شعبه.

بثَّ روح الأمل والتفاؤل بالعودة

لا شكَّ في أن الاحتلال الصهيوني يحاول بثَّ روح الهزيمة النفسية في الشعب الفلسطيني، وذلك أشدَّ خطراً على أبناء الأرض المحتلة. فمن هذا الأساس، يحتاج شعر المقاومة الثقافية إلى بثَّ روح الأمل حتَّى يدفع الشعب الفلسطيني إلى واقع أفضل، ويجنح «إلى التفاؤل الواعي وإلى الأمل المتزن بحيث يتجنب أدبنا المناضل اليأس والسلبية لما فيها من منافاة لروح النضال»⁵¹. وبالرغم مما يحدث من مجازر مؤلمة داخل الأراضي المحتلة، إلا أن الأمل بالعودة والسمود والرغبة في النضال ما زال قائماً. وهذا ما تحدّث عنه الشاعر سميح القاسم قائلاً:

فَجَاهِدِ.. كما يَنْبَغِي أَنْ تَجَاهِدَ / تَأْمَلِ بَعِينِينَ مَفْتُوحَتَيْنِ وَقَلْبِ بَصِيرٍ / تَأْمَلِ.. وكابِدِ / كما يَنْبَغِي.. لا تَكْرُرْ حِمَاقَةَ سِزِيْفِ.. قَفْ / فِي أَعَالِي الْعَذَابِ.. تَأْمَلِ.. وِرَاجِعِ.. / وِطَالِعِ.. وِتَابِعِ / وِشَاهِدِ / وِصَارِعِ⁵². إنَّ الدعوة إلى الأمل والتفاؤل والبعد عن التشاؤم واضحة في الأسطر الشعرية السابقة، والقاسم دعا الشعب الفلسطيني أن ينظر إلى السماء وأن يحلم بواقع جديد يصنعه بأيديه كيفما يشاء، واقع يتطلّب المجاهدة والمكابدة لتحقيق ما يرنو إليه. يرى القاسم أن العودة إلى فلسطين ممكنة، وليس هناك شيء يحول دون هذه الأمنية، فلذلك عبّر عن تفاؤله وقرع في ناقوس العودة إلى الأراضي المحتلة على الرغم من وجود عوائق كثيرة، في قوله:

أَنْ لِلْغَائِبِ أَنْ يَقْرَعَ بَابَ الْبَيْتِ / لِلْمَقْعَدِ أَنْ يَنْهَضَ / لِلْمَحْرُومِ أَنْ يَنْصِفَ / لِلْمَتْعَبِ أَنْ يَرْتاحَ / فِي ظِلِّكَ يَا أُمِّي الْقَدِيمَةَ / أَنْ لِلْمَقْتُولِ أَنْ يَنْسَى قَلِيلًا / مِنْ تَفَاصِيلِ الْجَرِيمَةِ / فَأَعْدِي لِلْجَوَادِ الْأَبْيَضِ الْمَاءِ⁵³.

يظهر من خلال ما سبق أن الشاعر أنشدَ آملاً للشعب الفلسطيني المضطهدة. فهو يرى أن الغائب يعود، والمقعد ينهض، والمحروم ينصف، والمتعب يرتاح، غير أن كل ذلك مرهون بانقشاع غمامة الطغيان لتشرق شمس الحرية في الأفق.

نقد الذات في شعر القاسم

يعدّ نقد الذات من أهمّ الموضوعات الفكرية في الشعر الفلسطيني عامة وشعر سميح القاسم خاصة. لقد وجّه الشاعر في بعض قصائد ديوان «ملك أتلانتيس» سياط نقده على الخانعين الذين اتخذوا موقفاً سلبياً إزاء احتلال الأرض من خلال الحديث عن استكانتهم، وضعف وطنيتهم مشبهاً إياهم بالقطيع الذي يساق للذبح بدون مقاومة. يقول:

هنا أنت.. حوّلك هذا الجدار الكثيف / وهذا الهمود الكفيف وهذا الخمود المخيف /
وحول جنونك تقع الملايين حول الملايين / فوق الملايين.. تحت الملايين.. تمضي إلى
الذبح.. قطعان ماعز / وتولد للذبح قطعان ماعز⁵⁴.

استثار القاسم فيما سبق الشعور بالكرامة ورفض الخمود والاستكانة، كما حرّض على التحرك والاحتجاج وعدم السلبية. ويقول في مكان آخر منتقداً الإنسان العربي والفلسطيني بأنه لا يعلم طريق الكفاح والنضال، وهذا شيء جديد في أدب المقاومة قلماً نألفه عند الآخرين من شعراء المقاومة:

أحسّ أننا نموتُ / لأننا لا ننتقنُ النضال / لأننا نعيد دون كيشوت / لأننا.. لهفي على
الرجال⁵⁵.

نتائج البحث

تناولت هذه الدراسة موضوع المقاومة الفكرية والثقافية - الذي ظهرت في التسعينيات من القرن الماضي - في شعر سميح القاسم بوصفه أداة للدفاع عن قضية فلسطين ومبادئها. استطاع الشاعر بموهبته الشعرية أن يظهر للقارئ مدى تمسكه بأصالته، واعتزازه بهويته، وانتمائه الحضاري للأرض المحتلة. أما الجديد في اعتزاز الشاعر بهويته، فهو أنه لم ينحصر في هويته الوطنية والقومية، بل تجاوز ذلك إلى الهوية الإنسانية، وطرح القضية في بعدها الإنساني والعالمي للفت الأنظار إلى الواقع في الأراضي المحتلة.

أما الشاعر، فلم يغفل في شعره عن بعدين مهمين من أبعاد المقاومة الفكرية والثقافية، وهما بثّ روح الأمل في الشعب الإسلامي والفلسطيني بأن الأرض المحتلة تعود إلي صاحبها شامخة، ونقد الذات الذي يشمل الخيانة والتفرقة والجهل، كما أنه يشمل نقد طرق المقاومة والنضال مع العدو. والحديث عن التاريخ الإسلامي للأرض المحتلة جانب مهم آخر في شعر القاسم أثبت فيه تعلق الفلسطينيين بالأرض. وموضوع آخر جديد قلماً نجده لدى الشعراء المقاومين الآخرين هو الإشارة إلى عداء المحتلين للغة العربية التي تمثل هوية الفلسطينيين في الأراضي المحتلة.

Reflections of Cultural and Intellectual Resistance in Samih al-Qasim poetry

Jamal Talebi Gharegheshlaghi, *Department of Arabic Language, Farhangyan University, Tehran, Iran.*

Abstract

Resistance is a vital part of contemporary Arab poetry. It can be said that resistance is not any more limited to military resistance; however, the 1980s and 1990s witnessed another type of resistance which can be referred to as cultural resistance. This type of resistance manifests itself in defending history, ethnic and national identity and civilization, raising awareness about the importance of resistance among Palestinian people. Samih Al-Qasim, a contemporary Palestinian poet, is one of the pioneers in the field of cultural resistance. He has devoted himself to the issue of national and ethnic identity, which the Zionist regime seeks to eliminate so that Palestinian people live in cultural, intellectual, and historical isolation. Al-Qasim believes in the power of words functioning socially and intellectually to raise awareness and effect change. The present study which is based on a descriptive-analytical approach investigates the features of cultural and intellectual resistance in Samih Al-Qasim's poetry. It concludes that defending national, regional, and universal identity, resisting ignorance and treachery, condemning social classes, clinging to Islamic history, defending Arabic, and promoting some Islamic and Arab history all of which are part of Al-Qasim's poetry. These aspects represent cultural resistance in the poetry of Samih Al-Qasim.

Keywords: contemporary Palestinian poetry, resistance, thought and culture, identity and belonging.

الهوامش

- (1) عابد، صالح علي، الإيقاع في شعر سميح القاسم دراسة أسلوبية، أطروحة ماجستير، غزة، جامعة الأزهر، 2012م، ص: 10.
- (2) بزراوي، باسل محمد علي، سميح القاسم دراسة نقدية في قصائده المحذوفة، رسالة ماجستير، فلسطين، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، 2008م، ص: 129.
- (3) ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 2003م، ج: 7، ص: 548.
- (4) شقور، رفقة، أثر حزب الله في تطوير فكر المقاومة وأساليبها في المنطقة العربية، رسالة ماجستير، نابلس، فلسطين، جامعة النجاح الوطنية، 2009م، ص: 20.
- (5) البقرة: 191.
- (6) السيد، عزمي، طه وآخرون، الثقافة الإسلامية: مفهوما، مصادرها، خصائصها ومجالاتها، عمان، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط4، 2002م، ص: 25.24.
- (7) السيد، عزمي، ص: 27.
- (8) ينظر: بركات، جميل، فلسطين والشعر، عمان، دار الشروق للنشر، 1989م، ص: 43.
- (9) خضر، عباس، أدب المقاومة، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، سلسلة المكتبة الثقافية، 1968م، ص: 3.
- (10) جمعة، حسين، ملامح في الأدب المقاوم: فلسطين أنموذجاً، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، 2009م، ص: 34.
- (11) جبور، زهير، وآخرون، الإبداع والرؤى في تجربة زياد نبيان الفلسفية والشعرية، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2004م، ص: 15.
- (12) جبور، زهير، وآخرون، ص: 17.
- (13) ينظر: مجلة الآداب البيروتية، العدد 3، العدد الممتاز الخاص بفلسطين، مارس، 1964م، العدد 6.5.
- (14) ينظر: مجلة الوحدة، «حول التوصيات العالمية حول المقاومة الثقافية للشعب العربي الفلسطيني في الأرض المحتلة»، 1986م، العدد 20، ص: 87.
- (15) القلقيلي، عبد الفتاح؛ وأبو غوش، أحمد، الهوية الوطنية الفلسطينية: خصوصية التشكل والإطار الناظم، المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، مركز بديل، 2012م، ص: 17.
- (16) دراج، فيصل، قضايا فلسطينية - السياسة والثقافة والهوية، المجلس الأعلى للتربية والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، 2008م، ص: 40.

- (17) جمعة، حسين، ص: 83.
- (18) جمعة، حسين، ص: 76.
- (19) القاسم، سميح، الديوان، بيروت، دار العودة، 1987م، ص: 484.
- (20) القاسم، سميح، الأعمال الكاملة، الكويت، دار سعاد الصباح، 1993م، ج1: 516.
- (21) القاسم، سميح، الديوان، بيروت، دار العودة، 1987م، ص: 691.
- (22) زيدان، رقية، التغيير الدلالي في شعر سميح القاسم، عكا مؤسسة الأسوار، ط1، 2009م، ص: 193.
- (23) القاسم، سميح، 1987م، ص: 59.
- (24) طه، المتوكل، وآخرون، حوار مع سميح القاسم، الشعراء، شتاء، 1999م، ص: 140.
- (25) القاسم، سميح، 1993م، ج1: 235.234.
- (26) القاسم، سميح، 1993م، ج1: 133.132.
- (27) القاسم، سميح، ديوان الحماسة، عكا منشورات الأسوار، 1979م، ج2: 51.
- (28) القاسم، سميح، 1993م، ج2: 365.
- (29) ينظر: زيدان، رقية، ص: 65.
- (30) ينظر: زيدان، رقية، ص: 65.
- (31) القاسم، سميح، 1987م، ص: 211.
- (32) القاسم، سميح، 1987م، ص: 330.
- (33) القاسم، سميح، 1993م، ج1: 62.
- (34) الكيالي، عبد الرحمن، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1975م، ص: 180.
- (35) القاسم، سميح، 1993م، ج2: 608.
- (36) القاسم، سميح، 1993م، ج2: 88.
- (37) القاسم، سميح، 1993م، ج1: 31.
- (38) جمعة، حسين، ص: 15.
- (39) القاسم، سميح، ديوان الموت الكبير، بيروت، دار الآداب، ط1، 1972م، ص: 252.
- (40) القاسم، سميح، 1987م، ص: 458.

- (41) محمد: 15.
- (42) القاسم، سميح، 1993م، ج1: 144.
- (43) القاسم، سميح، 1990م، ص: 56.
- (44) القاسم، سميح، 1993م، ج 2: 338.
- (45) القاسم، سميح، ديوان وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، ط1، القدس، منشورات صلاح الدين، ط1، د.ت، ص: 161.
- (46) الدقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي، جامعة حلب، ط3، 1977م، ص: 238.
- (47) القاسم، سميح، 1993م، ج4: 40.
- (48) القاسم، سميح، 1993م، ج2: 336.
- (49) القاسم، سميح، 1993م، ج4: 286.285.
- (50) القاسم، سميح، 1993م، ج4: 45.
- (51) هيكل، أحمد، دراسات أدبية، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1980م، ص: 23.
- (52) القاسم، سميح، ملك أتلانتس، الدار العربية للعلوم، ط1، 2005م، ص: 49.
- (53) القاسم، سميح، 1972م، ص: 18.17.
- (54) القاسم، سميح، 1972م، ص: 38.
- (55) القاسم، سميح، 1987م، ص: 37.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 2003م.
- بركات، جميل، فلسطين والشعر، عمان، دار الشروق للنشر، 1989م.
- بزاوي، باسل محمد علي، سميح القاسم دراسة نقدية في قصائده المحذوفة، رسالة ماجستير، نابلس - فلسطين، جامعة النجاح الوطنية في ، 2008م.
- جبور، زهير، وآخرون، الإبداع والرؤى في تجربة زياد نبيان الفلسفية والشعرية، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2004م.

- جمعة، حسين، ملامح في الأدب المقاوم: فلسطين أنموذجاً، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، 2009م.
- خضر، عباس، أدب المقاومة، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، سلسلة المكتبة الثقافية، 1968م.
- دراج، فيصل، قضايا فلسطينية - السياسة والثقافة والهوية، المجلس الأعلى للتربية والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، 2008م.
- الدقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي، جامعة حلب، ط3، 1977م.
- زيدان، رقية، التغيير الدلالي في شعر سميح القاسم، عكا، مؤسسة الأسوار، ط1، 2001م.
- السيد، عزمي، طه وآخرون، الثقافة الإسلامية: مفومها، مصادرها، خصائصها ومجالاتها، عمان، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط4، 2002م.
- شقور، رفقة، أثر حزب الله في تطوير فكر المقاومة وأساليبها في المنطقة العربية، رسالة ماجستير، نابلس، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2009م.
- طه، المتوكل، وآخرون، حوار مع سميح القاسم، الشعراء، شتاء، 1999م.
- عابد، صالح علي، الإيقاع في شعر سميح القاسم دراسة أسلوبية، أطروحة ماجستير، غزة، جامعة الأزهر، 2012م.
- القاسم، سميح، الأعمال الكاملة، الكويت، دار سعاد الصباح، 1993م.
- القاسم، سميح، الديوان، بيروت، دار العودة، 1987م.
- القاسم، سميح، ديوان وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، ط1، القدس، منشورات صلاح الدين، د.ت.
- القاسم، سميح، أخذة الأمير يبوس، القدس، دار النورس الفلسطينية للصحافة والنشر، 1990م.
- القاسم، سميح، ملك أتلانتس، الدار العربية للعلوم، ط1، 2005م.
- القاسم، سميح، ديوان الموت الكبير، بيروت، دار الآداب، ط1، 1972م.
- القاسم، سميح، ديوان الحماسة، عكا، منشورات الأسوار، 1979م.

القليلي، عبد الفتاح؛ وأبو غوش، أحمد، الهوية الوطنية الفلسطينية: خصوصية التشكل والإطار الناظم، المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، مركز بديل، 2012م.

الكيالي، عبد الرحمن، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1975م.

هيكل، أحمد، دراسات أدبية، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1980م.

الدوريات:

مجلة الوحدة، «حول التوصيات العالمية حول المقاومة الثقافية للشعب العربي الفلسطيني في الأرض المحتلة»، العدد 20، 1986م.

مجلة الآداب البيروتية، العدد 3، العدد الممتاز الخاص بفلسطين، مارس، 1964م.